مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم

١٠

الدفاع عن القرآن

ضد النحويين والمستشرقين

تأليف

الدكتور أحمد مكي الأنصاري

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها
وأستاذ الدراسات النحوية واللغوية بكلية الآداب
جامعة القاهرة — فرع الخرطوم

القسم الأول

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فهذا بحث فى (الدفاع عن القرآن) ضد النحويين والمستشرقين ، كنت قد أعددته فى سلسلة من الدراسات التى تتناول البحث فى (النحو والقراءات) . وشاءت الأقدار أن تظهر الحلقة الأولى من هذا الميدان ، بعنوان (سيبويه والقراءات)[1] ، والآن نقدم الحلقة الثانية بعنوان (الدفاع عن القرآن) وقد اشتملت على الجانب النحوى فقط ، وكان المفروض أن تشمل جانب المستشرقين أيضاً ، ولكن الظروف القاهرة حالت دون ذلك ، فجعلنا (القسم الأول) للجانب النحوى ، (والقسم الثانى) لجانب المستشرقين ، وأرجو أن يرى النور قريباً إن شاء الله .

وقد رأيت أن يكون كتاب الدفاع مكوناً من مباحث سبعة ، تسبقها مقدمة ، وتقفوها خاتمة ، وقد تناول كل مبحث منها آية من القرآن الكريم تمثل ظاهرة من الظواهر التى احتدم فيها الجدل ، واشتجرت فيها الآراء ، واختلف فيها النحاة اختلافا كبيراً[2] ، وتملكتهم العصبية المذهبية ، فتعصبوا للقواعد النحوية ، ضد القراءات القرآنية ، حتى لو كانت من القراءات السبعية

---

(١) توزيع دار المعارف بمصر .

(٢) فريق يؤيد القراءات، وفريق يعارضها أشد المعارضة كما سيأتى بالتفصيل.

فوصفوها بأبشع الصفات ، ورمزها بالقبح[1] ، والخطأ[2] والضعف[3] ، واللحن[4] والرداءة[5] ، والشذوذ[6] ، وأحياناً يحكمون عليها بالبطلان[7] ويصفونها بالسماجة[8] ، وعدم الفصاحة[9] .. إلى آخر ماهنالك من الصفات التى لاتليق ... وأحياناً يجاوزون كل حد معقول أو مقبول ، فيحرمون القراءة بها[10] مع أنها قراءة سبعية محكمة ، لالشيء إلا لأنها جاءت مخالفة للقواعد النحوية التى صنعوها بأيديهم فى مصنع التقعيد[11] .

ومن هنا كان المنطلق .. حيث وجدتنى مدفوعاً بدافع خفى قوى إلى

---

(١) انظر مثلا البحر المحيط لأبى حيان ٥/٤١٩ والكتاب لسيبويه ١/٢٣٣ والخزانة ٤/٢٢١ .

(٢) راجع مثلا حاشية الشيخ يس ٢/٢٠ والبحر المحيط ٥/٤١٩ وإبراز المعانى ص ٢٨٣ .

(٣) راجع مثلا النشر ٢/٢٩٨ والبحر المحيط ٥/٤١٩ وحاشية الشيخ يس العليمى ٢/٦٠ وشرح المفصل ٣/٧٨ .

(٤) انظر مثلا حاشية الشيخ يس ٢/٦٠ .

(٥) راجع البحر المحيط ٥/٤١٩ والنشر فى القراءات العشر ٢/٢٩٨ والكتاب لسيبويه ١/٢٣٣ .

(٦) انظر مثلا البحر المحيط ٥/٤١٩ .

(٧) راجع مثلا معانى القرآن للفراء جـ ٢ ص ٨٢ طبع الدار المصرية للتأليف والنشر .

(٨) انظر مثلا الكشاف جـ ١ ص ٤٧٣ عند تفسير قراءة ابن عامر فى سورة الأنعام (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) .

(٩) تفسير الطبرى ٨/٣١ .

(١٠) راجع مثلا شرح ابن يعيش على المفصل ٣/٧٨ .

(١١) راجع فى كل ذلك كتاب (سيبويه والقراءات) للدكتور أحمد مكى الأنصارى - توزيع دار المعارف بمصر .

النهوض بالواجب المقدس فى الدفاع عن القرآن الكريم ، وقراءاته المحكمة واستعنت بالله ، فكان لى خير معين فى إخراج هذه السلسلة التى ترى بواكيرها الآن بين يديك .

* * *

ماذا أقول لهؤلاء الطغاة من النحاة ؟ ... إننى لا أجد شيئاً أقوله أكرم من قولى (سامحهم الله) ! !

ماذا عليهم لو أجازوا هـــذه القراءات كما أجازها الفريق المعتدل من النحاة ؟

ماذا عليهم لو سلموا بالوارد من الشواهد ، وعدّلوا القواعد بحيث تشمل جميع النصوص الواردة ... وجعلوها قسمين : كثيرة وأكثر — أو كثيرة وقليلة — إلى آخر ماهنالك من تقسيمات علمية منهجية تتيح للوارد من الشواهد أن يدخل فى القاعدة ، ويندرج تحتها . ويستظل بلوائها وسمائها ، دون أن يجرحوا هذه القراءات السبعية ، وغيرها من القراءات ؟

ألا ترى معى أن النحويين بوجه عام . ولاسيما البصريين ، قد جاوزوا الحد المعقول ، وأسرفوا على أنفسهم فى اللغة وفى الدين ... فأىّ منهج لغوى سليم يهدر قدراً كبيراً من شواهدها الموثوق بها دون أن يدخلها تحت القاعدة العامة ؟

ولو كان إدخال هذه الشواهد يهدم القواعد هدما تاما ... إذن لالتمسنا لهم المعاذير . . وقلنا إن اللغة تحتاج إلى شىء من التقعيد .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فى كثير من القضايا التى سأعرضها عليك ... وكل الذى يحدث هو أن تتسع القاعدة فتشمل جميع الوارد من الشواهد ... ومثل هذا الصنيع يعطيها قوة ، وحصانة ليس بعدها حصانة ... ولكن العصبية تُعمى

وتُصم . فلا يسمع المتعصبون نداء العقل والدين والمنهج السليم »[1]

« إننى لا أتهم هؤلاء النحاة فى دين أو خلق ... ولكنها العصبية المذهبية والتمسك بالقواعد النحوية . كل ذلك فرض عليهم أن يقفوا هذه المواقف التى لا تليق بالعلماء الأجلاء .. !

وكان خليقاً بهم أن يتخذوا القرآن الكريم منبعهم الذى لا يغيض ، ومصدرهم الأول فى كل تقعيد ، ومن هنا كانت دعوتنا الحارة ، لاتخاذ الخطوات الجادة فى إخراج (النحو القرآنى) »[2]

ويعجبنى فى هذا المقام قول أبى حيان : (ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ، ولا غيرهم ممن خالفهم ، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون ، وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون ، وإنما يعرف ذلك من له استبحار فى علم العربية)[3] .

« وأشد إعجابا بقول الفخر الرازى : (وكثيرا ما أرى النحويين يتحيرون فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد العجب منهم ، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلا على صحتها ، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان أولى)[4] .

وكان خيرا لهم ، وللنحو نفسه . أن يقلعوا عن هذا المسلك . ويعفوا

---

(١) مقتبس بتصرف يسير من ص ٣٠ فما بعدها من بحثنا هذا ، فارجع إليه إن شئت .

(٢) راجع (سيبويه والقراءات) ص ٢٤٩ فما بعدها (بتصرف يسير) .

(٣) انظر البحر المحيط لأبى حيان ٣/١٥٩ .

(٤) تفسير الفخر الرازى ٣/١٥٩ .

أنفسهم من التخطيء للقراءات الواردة الثابتة .. ولكن أنَّى لهم ذلك وقد استمرءوا هذا المرعى الخصيب ! ! »[1] .

ذلك ما كان من أمر النحاة فى العصور الخوالى وإن تعجب فعجب لأمر النحاة فى عصرنا الحاضر ... وإذا أردنا الدقة ... قلنا بعض النحاة ، أو المشتغلين بالدراسات النحوية من علمائنا المعاصرين .. فما كدت أنتهج هذا المنهج حتى سلقونى بألسنة حداد ، وهاجمونى فى أكثر من موطن[2] ... ولم أشأ أن أدخل فى صراع جانبى ... وإنما فضلت أن أعتصم بالمنهج العلمى[3] ، وأدافع عن فكرتى بالحجج والبراهين ، وأناقش الزملاء والأساتذة الأجلاء مناقشة علمية هادئة هادفة ... وأقول لهم مقالة القرآن الكريم : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »[4] .

وحينما دافعت عن فكرتى دفاعا قويا ، مدعوما بالأدلة القاطعة من كتاب سيبويه نفسه ... فوجىء هؤلاء العلماء الذين أكدوا من قبل أننى وأمثالى من الباحثين نتجنى على البصريين وعلى سيبويه بالذات ، و « لا يوجد فى كتاب سيبويه شاهد واحد على هذه التهمة الكبيرة »[5] - كما قالوا: « وليس فى كتاب سيبويه تخطئة واحدة لقراءة من القراءات . وقد صرح بقبولها جميعا مهما كانت شاذة على مقاييسه »[6] وكان من توفيق الله لنا أن وجدنا كثيراً من الآيات التى يعارضها سيبويه معارضة صريحة ، أو خفية ، إذا لم

---

(١) راجع كتابنا (سيبويه والقراءات) ص ٢٥٠ فما بعدها (بتصرف يسير) — توزيع دار المعارف بمصر .

(٢) انظر مثلا المدارس النحوية ص ١٥٦ فما بعدها .

(٣) راجع (سيبويه والقراءات) ص ١٥ وغيرها كثير .

(٤) سورة سبأ آية ٢٤ .

(٥) المدارس النحوية ص ١٩ طبع دار المعارف .

(٦) المصدر السابق ص ١٥٧ .

تتفق مع القواعد النحوية ... وقد تناولت كل ذلك بالتفصيل فى كتابنا (سيبويه والقراءات) فارجع إليه إن شئت .

« وأغرب من هذا أن بعض العلماء الأجلاء فى زماننا هذا يشفقون على النحو والنحاة ... ولا يستريحون لهذا الدفاع القوى عن القرآن المجيد ، وقراءاته المحكمة المتواترة .. وليتهم رجعوا إلى دينهم ، وإيمانهم الراسخ فى أعماقهم ... ليثوبوا إلى رشدهم ... وليعلموا أن القرآن الكريم أولى بالدفاع من النحو والنحاة .

ليتهم يثوبون .. وليت قومى يعلمون .. أتمنى لهم ذلك ... ولكن ... ما كل مايتمنى المرء يدركه ... وكل الذى أملكه لهم الآن .. أن أردد مقالة القرآن : (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

لعلك تشاركنى هذا العجب ... وتلتمس لى المعاذير إن قسوت أحيانا على النحو والنحاة مع أننى أحد المشتغلين بالنحو ، والمتخصصين فيه ، والعاشقين له منذ نعومة الأظفار ... ولعل عشقى له ، وهيامى به ، هو الذى دفعنى دفعا إلى تنقيته من الشوائب التى علقت به ، نتيجة التعصب الأعمى للمذهب البصرى ، أو للقواعد النحوية بوجه عام[1] .

ويخطىء من يظن أننى أتعصب لمذهب دون مذهب ... فلماذا التعصب للبصريين ، أو للكوفيين ، ولسنا من هؤلاء ولا أولئك ؟ ولو كان هناك مجال للتعصب لتعصبت لصاحبى الأثير ، الإمام الكبير ، أبى زكريا الفراء[2] ... وسيجد القارىء أننى وقفت منه مواقف خالدات . فى تاريخ الدفاع عن القرآن والقراءات .. تماماً كما وقفت من سيبويه إمام النحاة ، وعلم الأعلام فى كل زمان كما يقولون ... وكذلك كان موقفى من العبقرى الخالد ، نابغة العرب ، الخليل بن أحمد الفراهيدى ... وغيرهم كثير وكثير من أقطاب

---

(١) مقتبس من بعض التعقيبات فى كتابنا هذا (الدفاع عن القرآن) .

(٢) حيث إنه كان موضوع رسالتى فى الدكتوراة ، وقد طبعه المجلس الأعلى للفنون والآداب ـ توزيع دار المعارف بمصر .

النحو ، وجهابذة العلماء ... والمبدأ الذى لا أحيد عنه هو الوقوف إلى جانب الحق والحقيقة ، مهما تكالبت عليها الأيام ، وانتهشتها الأقلام ، وعارضتها الآراء ... حتى لو كانت هذه الآراء صادرة من هؤلاء الأئمة الأكابر .

صحيح أن كل إمام من هؤلاء يعتبر قمة من القمم الشوامخ ... وله منزلة كبيرة فى نفسى ، ولكن (كل كبير ... الحق أكبر منه) ... فنحن نكبرهم ، ونقدرهم كل التقدير ... ولكن لانقدسهم أىّ تقديس ، وفرق كبير بين التقدير والتقديس .

* * *

ما كان أغنانى وأغناهم عن كل ذلك لو علموا أن اللغة العربية أوسع مما بين أيديهم جميعا ... وأن فائتات كثيرة فاتت على الذين جمعوا اللغة فى عصر التدوين[1]. وأن الشعر العربى قد ضاع منه الكثير قبل أن يدون ... وقد تنبه إلى هذه القضية الخطيرة ، الرجل الملهم ، الخليفة الثانى ، عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ، حيث قال عن الشعر : « حُفظ أقل ذلك ، وذهب عنهم كثيره »[2]. وكذلك فعل أبو العلماء : أبو عمرو بن العلاء حين قال: « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »[3] وقد صار هذا المبدأ دستورا خالدا عند الباحثين المنصفين .

لو علموا ذلك ماتجرءوا على تخطىء القراءات المحكمة ... ولكان لهم موقف آخر يقولون فيه : لعلها جاءت على لغة كذا ... أو لغة كذا من

---

(١) راجع كتاب (أبو زكريا الفراء) للدكتور أحمد مكى الأنصارى ص ٤٩٧ فما بعدها ـ نشر دار المعارف بمصر .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٣) المصدر السابق .

اللغات التى لم تصل إلينا ، وضاع معظمها كما يقول عمر بن الخطاب وأبو عمرو ابن العلاء .

على أنهم لو أنصفوا لكان لهم موقف أقوى من ذلك ... وهو اعتماد القراءة المحكمة حتى ولو لم ترد فى لغة من اللغات على الإطلاق . فالقرآن هو الحجة البالغة . وعلى أساسه يكون تقعيد القواعد ، كما ينبغى تصحيح ماوضع منها إذا ماتعارض مع شىء من القراءات المحكمة ، ويعجبنى فى هذا مذهب الذى يقول : « وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة »[1] وهذا هو مذهب الحذاق من العلماء الأصفياء المخلصين للقرآن الكريم - ورحم الله أبا زكريا الفراء حين قال : « إن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق »[2] .

وفى النهاية أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل المتواضع ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يوفقنى إلى المزيد من خدمة القرآن المجيد ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

أحمد مكى الأنصارى

---

(١) انظر كتاب (الانتصاف من الكشاف) للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير (ت ٦٣٣ هـ) على هامش الكشاف ٤٧٢/١ طبع الحلبى .

(٢) راجع ص ٢ من كتابنا (سيبويه والقراءات) تحت عنوان (أقوال تعجبنى) .

(١)

قراءة حمزة بخفض الأرحام

قال تعالى : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً »[١] .

تعددت القراءات فى كلمة (الأرحام) فجاءت بالرفع[٢] ، والنصب[٣] والجر[٤] وشاهدنا فى قراءة الجر . .. وهى قراءة سبعية[٥] ، قرأ بها حمزة[٦] ابن حبيب الزيات كما قرأ بها ابن عباس والحسن البصرى[٧] ، والنخعى وقتادة والأعشى[٨] ، ويحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف ... ورواية الأصفهانى والحلبى عن عبد الوارث »[٩] وجملة القول كما يقول أبو حيان أنها « قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها سلف الأمة ، واتصلت

---

(١) النساء آية رقم (١) .

(٢) البحر المحيط ٣/١٥٧ حيث قال (وقرأ عبد الله بن يزيد بضمها) -- والعكبرى حيث قال : (وقد قرىء شاذاً بالرفع) ص ٥٦ — إملاء مامن به الرحمن .

(٣) قرأ جمهور السبعة بنصب الميم ـ البحر ٣/١٥٧ .

(٤) البحر المحيط ٣/١٥٧ ، والإنصاف ص٢٧٢ طبع صبيح (المسألة ٦٥) .

(٥) ابن خالويه ٩٤ تحقيق زميلنا الدكتور عبد العال سالم ، والإنصاف ص ٢٧٢ (المسألة ٦٥) .

(٦) البحر ٣/١٥٧ والإنصاف (المسألة ٦٥) .

(٧) شرح الرضى على الكافية ٣/١١٧ ، وشرح المفصل ٣/٧٨ وانظر إبراز المعانى ص ٢٨٤ .

(٨) البحر المحيط ٣/١٥٧ .

(٩) الإنصاف (المسألة ٦٥) .

بأكابر قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن من فيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير واسطة (كذا)[١] ، عثمان وعلى وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأقرأ الصحابة « أبى بن كعب »[٢] .

ومع كل هذا التوثيق الدقيق جاء النحاة ، أو بعبارة أدق جاء جمهور البصريين فردوا[٣] هذه القراءة السبعية ، وضعفوها[٤] ، بل خطئوها[٥] ، وحرموا القراءة بها[٦] كما سيأتى بالتفصيل .

وأول من فتح باب الطعن على هذه القراءة هو الإمام سيبويه ـ رحمه الله ـ يقول ابن عطية : « وهذه القراءة عند رؤساء نحويي[٧] البصرة لا تجوز ... وأما سيبويه فهى عنده قبيحة[٨] » .

وإذا أردنا الدقة قلنا : أن الخليل بن أحمد هو أول من فتح باب الطعن ، وعنه أخذه سيبويه ، وإليك نص ما جاء بالكتاب ، قال سيبويه : « ومما يقبح أن يشركه المظهر علامة المضمر المجرور ، وذلك قولك : مررت بك وزيد .. وأما فى الإشراك فلا يجوز لأنه لا يحسن الإشراك فى فعلت وفعلتم إلا بأنت وأنتم ، وهذا قول الخليل ... وقد يجوز فى الشعر بأن تشرك بين

---

(١) كذا ـ ويبدو أن بها نقص كلمة (مثل) أو (وهم) أو ما أشبه ذلك مما يستقيم معه المعنى أو يكون الكلام مستأنفا دون إضافة واسطة إلى عثمان .

(٢) البحر ٣/١٥٧ .

(٣) شرح المفصل ٣/٧٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) إبراز المعانى ص ٢٨٣ .

(٦) شرح المفصل ٣/٧٨ .

(٧) بالإصل (نحويين البصرة) بدون حذف النون . . وهو خطأ مطبعى ، فالنون تحذف للاضافة كما هو معلوم .

(٨) البحر المحيط ٣/١٥٨ .

الظاهر والمضمر على المرفوع والمجرور إذا اضطر الشاعر ، وجاز قمت أنت وزيد ، ولم يجز مررت بك أنت وزيد لأن الفعل يستغنى بالفاعل والمضاف لا يستغنى بالمضاف إليه لأنه بمنزلة التنوين [1]» .

* * *

وخلاصة القاعدة التى يدور حولها الخلاف هى : « عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور » وبتطبيق هذه القاعدة على الآية الكريمة نرى أن كلمة الأرحام - وهى اسم ظاهر - قد عطفت على الضمير فى كلمة (به) بدون إعادة حرف الجر ، وهو الباء .

ومن هنا نشأ الخلاف بين النحاة ، « فذهب الكوفيين إلى أنه يجوز العطف على الضمير المخفوض . وقال البصريون إنه لا يجوز»[2] .

وأوضح من هذا ما جاء فى البحر المحيط حيث يقول :

« العطف على المضمر المجرور فيه مذاهب :

أحدها : أنه لا يجوز إلا بإعادة الجار إلا فى الضرورة . وعليه جمهور البصريين .

والثانى : أنه يجوز فى الكلام (النثرى) ، وبه قال الكوفيون ، ويونس (ابن حبيب) وأبو الحسن (الأخفش) ، والأستاذ أبو على الشلوبين .

والثالث : أنه يجوز فى النثر إن أكد الضمير ، نحو مررت بك نفسك وزيد ، وإلا لم يجز فى الكلام ... وهذا مذهب الجرمى .

والمختار جوازه لكثرته سماعاً ، ومنه ما روى من قول العرب :

ما فيها غيره وفرسه أى وغير فرسه ، وقراءة حمزة فى السبع :

---

(١) الكتاب ١/٣٩١ .

(٢) الإنصاف ٢٧٢ ط صبيح (المسألة ٦٥) بتصرف يسير .

(تساءلون به والأرحام) أى وبالأرحام . وتأويلها على غيره بعيد يخرج الكلام عن الفصاحة ، فلا يلتفت إلى التأويل ... ومن ادعى اللحن فيها ، أو الغلط على حمزة فقد كذب »[١] .

ولعلك تلحظ أن البصريين هم الذين يعارضون القراءة السبعية . وليس الكوفيين ، كما أن رؤساء المدرسة البصرية قد اشتركوا فى هذه المعارضة ومن بينهم سيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد[٢] ـ فليس الأمر مقصوراً على المتأخرين من البصريين كما يزعم أستاذنا الدكتور شوقى ضيف[٣] ومن حذا حذوه من الزملاء[٤] .

ومن هنا يتبين لكل باحث منصف صدق ما قلت ، وأقول ، من أن البصريين هم الذين يحملون راية المعارضة للقراء[٥] والشعراء[٦] وأن

---

(١) البحر ٢/١٤٧ والمجيد فى إعراب القرآن المجيد للصفاقسى (ت ٧٤٢) ورقة (٥٥) من الجزء الأول مخطوطه دار الكتب رقم ٣١٦ تفسير — بتصرف فيهما معا .

(٢) راجع الكتاب ١/٣٩١ .

(٣) المدارس النحوية ص ١٩ حيث يقول : (أن يعربى القرن الثالث هم الذين طعنوا فى بعض القراءات .. إلخ) .

(٤) الاستشهاد فى النحو العربى للزميل الفاضل للأستاذ عثمان الفكى ص١٥٥ مخطوطة بدار العلوم ومكتبة جامعة القاهرة وكذلك أثر القراءات فى الدراسات النحوية ص ١٥٢ .

(٥) راجع (أبو زكريا الفراء) للدكتور أحمد مكى الأنصارى — ص ٣٨٣ فما بعدها طبع المجلس الأعلى الفنون والآداب .

(٦) انظر التيار القياسى فى المدرسة البصرية — للدكتور أحمد مكى الأنصارى ص ١٥ وص ٢٠ فما بعدها ـ حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦٢ ـ وانظر (الموازنة بين المناهج البصرية) للمؤلف أيضا بحث نشر بمجلة الآداب سنة ١٩٦٢ .

الكوفيين بوجه عام كانوا أسلس قياداً من البصريين ، إذ أنهم يحترمون[١] الوارد من الشواهد ولو كان شاهداً واحداً من أعرابية رعناء كما يقول المبرد فما بالك بالقراءات القرآنية .

تلك هى الصبغة العامة عند البصريين والكوفيين ... وليس معنى ذلك أن جميع البصريين . أو جميع الكوفيين كانوا كذلك ، فقد رأينا خروجاً عن هذا الإجماع عند هؤلاء وأولئك ، ومن أمثلته خروج يونس عن إجماع البصريين على الطعن فى قراءة حمزة (تساءلون به والأرحام) فإنه أجازها[٢] مثلما أجازها الكوفيون[٣] - ومن أمثلة الخروج عن إجماع الكوفيين خروج الفراء فى قراءة ابن عامر (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم)[٤] بالفصل بين المتضايفين[٥] ، بل إنه - فيما أرى - كان أول من فتح باب الطعن على هذه القراءة[٦] فتزعم الفريق المهاجم من البصريين ولهذا قلنا أنه تأثر بهم وبمنهجهم ، وكان ينزع منازع أهل البصرة فى كثير من الأحيان[٧] .

---

(١) راجع (أبو زكريا الفراء) ص ٣٨٥ فما بعدها ، وكذلك ص ٣٥٨ فما بعدها وانظر (أبو على الفارسى) ص ٢٤٣ والاقتراح للسيوطى ص٨٤ ، والهمع ١/٤٥ ، وضحى الإسلام ص ٢٩٦ .

(٢) انظر (المجيد فى إعراب القرآن المجيد) للصفاقسى ج ١ ورقة (٥٥) مخطوطة دار الكتب رقم ٣١٦ تفسير .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سورة الأنعام آية ١٣٧ .

(٥) معانى القرآن للفراء ص ١٦٥ مصورتى — وانظر خزانة الأدب ٤/٣١٩ ط السلفية .

(٦) انظر (أبو زكريا الفراء) ص ٣٨٩ فما بعدها .

(٧) راجع مظاهر النزعة البصرية ص ٣٧٧ فما بعدها من كتابنا (أبو زكريا الفراء) .

وكان من آثار ما جاء فى كتاب سيبويه ذلك الذى نراه عند النحاة المتأخرين من الهجوم الفاحش على هذه القراءة السبعية ، إلى حد أن المبرد تجاوز كل الحدود فقال « لاتحل القراءة بها »[١] كما قال فى موطن آخر : « لو أنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى »[٢] .

ويعجبنى فى هذا المقام ما أثاره الأستاذ الكبير الدكتور حسن عون ـ من آثار عديدة لكتاب سيبويه من الناحيتين الإيجابية[٣] والسلبية[٤] كذلك تلك التى « امتدت إلى العلماء أنفسهم، إلى مجالات تفكيرهم، ولون نشاطاتهم ، فكانت مادة هذا الكتاب بمثابة مستودع ، كل واحد يغترف منها ما يطفىء ظمأه ، أو يلائم طبيعته »[٥] .

كما يعجبنى تعقيب ابن جنى على رأى المبرد فى هذه الآية حيث يقول :

« ليست هذه القراءة عندنا من الابعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها وذهب إليه أبو العباس (المبرد) بل الأمر فيها دون ذلك وأقرب وأخف وألطف »[٦] .

---

(١) انظر شرح المفصل ٣/٧٨ ، وانظر الكامل للمبرد ٢/٧٤٩ .

(٢) راجع درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى ص ٩٥ ـ الطبعة الأولى .

(٣) انظر (تطور الدرس النحوى) ص ٥١ فما بعدها طبع سنة ١٩٧٠ نشر معهد البحوث والدراسات العربية ، وانظر بحثاً له أيضا بعنوان (أول كتاب فى نحو العربية) محاضرة الأستاذية بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ـ ديسمبر سنة ١٩٥٨ .

(٤) راجع مبحث (هل هناك أثر سلبى لكتاب سيبويه) ص ٥٦ فما بعدها من كتاب (تطور الدرس النحوى) للأستاذ الدكتور حسن عون ـ فقد أثار فيه قضايا عديدة بالغة الأهمية كنا ننتظرها من النحاة الأوائل .

(٥) المصدر السابق ص ٥٤ بتصرف يسير .

(٦) راجع الخصائص لابن جنى ١/٢٩٤ تحقيق فضيلة المرحوم الشيخ محمد على النجار ـ بتصرف يسير .

وقريب من هذا ما جاء فى شرح المفصل حيث يقول ابن يعيش : « وقد رد أبو العباس المبرد هذه القراءة ، وقال لا تحل القراءة بها (وعقب عليه بقوله) وهذا القول غير مرضى من أبى العباس ، لأنه قد رواها إمام ثقة ، ولا سبيل إلى رد نقل الثقة ، مع أنه قد قرأ بها جماعة من غير السبعة كابن مسعود ، وابن عباس والقاسم وإبراهيم النخعى ، والأعشى والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد - وإذا صحت الرواية لم يكن سبيل إلى ردها »[1] .

أما الحريرى فقد كان لاذعاً فى نقده لرأى المبرد حيث رماه بالسقطات والهفوات والخيال الفارغ ... استمع إليه حين يقول معقباً على المبرد : «وهذا من جملة سقطاته ، وعظيم هفواته ، فإن هذه القراءة من السبعة المتواترة ، وقد وقع فى ورطة وقع فى مثلها بعض النحاة بناء على أن القراءات السبع عندهم غير متواترة ، وأنه يجوز أن يقرأ بالرأى ، وهو مذهب باطل وخيال فارغ »[2] .

ولم يكن المبرد هو البصرى الوحيد الذى اقتفى آثار سيبويه فى الطعن على هذه القراءة ، بل هناك جمع غفير من البصريين الذين ألفوا ورود هذا المورد الآسن .

وإليك البيان

قال المازنى فى الاحتجاج لرأى سيبويه بعدم الجواز : « لما كان المضمر المجرور لا يعطف على الظاهر إلا بإعادة الخافض كقولك (مررت بزيد وبك) كذلك ، تقول: (مررت بك وبزيد) فتحمل كل واحد منهما على صاحبه »[3] .

---

(١) شرح المفصل ٣/٧٨ .

(٢) راجع درة الغواص للحريرى ص٩٥ - الطبعة الأولى - بتصرف يسير .

(٣) هامش الكتاب ١/٣٩١ - مأخوذ من شرح السيرافى لكتاب سيبويه .

أما الزجاج فقد صرح بخطأ هذه القراءة ، وتأثر بسيبويه فوصفها بالقبح اتباعا لإجماع النحاة فيما يزعم فقال : « القراءة الجيدة نصب (الأرحام) فأما الخفض فخطأ فى العربية ، فإن إجماع النحويين أنه يقبح أن يعطف باسم ظاهر على اسم مضمر فى حال الخفض إلا بإظهار الخافض »[1] .

هذا ما كان من الزجاج جرياً وراء سيبويه . وليته وقف عند هذا الحد من وصفها بالخطأ فى العربية ... بل أراد أن يأتى بجديد فوصفها بالخطأ فى الدين أيضا ... استمع إليه يقول : « ... وخطأ أيضا فى أمر الدين عظيم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لاتحلفوا بآبائكم) فكيف يكون تتساءلون به وبالرحم على هذا »[2] .

وقد أغنانا عن الرد العلامة الرازى حين فند الاستدلال بالحديث فقال: « هذه حكاية عن فعل كانوا يفعلونه فى الجاهلية لأنهم كانوا يقولون : أسألك بالله والرحم ، وحكاية هذا الفعل عنهم فى الماضى لأننا فى ورود النهى عنه فى المستقبل (ثم قال) وأيضا فالحديث نهى عن الحلف بالآباء فقط وهنا ليس كذلك بل هو حلف بالله أولا ثم يقرن به بعده ذكر الرحم فهذا لا يقال فى مدلول هذا الحديث »[3] .

كما أن القشيرى أعفانا من التعقيب على الزجاج حين قال :

« ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى صلى الله عليه وسلم تواترا يعرفه أهل الصنعة ، وإذا ثبت شىء عن النبى فمن رد ذلك فقد رد على النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) إبراز المعانى ص ٢٨٣ .

(٢) معانى القرآن - مخطوطة ١١١ تفسير - ورقة رقم (٢) .

(٣) انظر درة الغواص للحريرى ٩٥ - الطبعة الأولى .

واستقبح ماقرأ به ، وهذا مقام محذور ، لاتقلد فيه أئمة اللغة والنحو »[١] .

وممن دار فى فلك البصريين ، وحذا حذو سيبويه ، بل زاد عليه ... بعض المفسرين من أمثال ابن عطية ... فقد رد هذه القراءة السبعية من ناحية العربية كما فعل أسلاف له من قبل ... ثم أراد أن يتفلسف فردها أيضاً من ناحية المعنى ... استمع إليه يقول : « ويرد عندى هذه القراءة من المعنى وجهان :

أحدهما أن ذكر الأرحام مما تساءل به لامعنى له فى الحض على تقوى الله تعالى ولافائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها ، وهذا تفريق فى معنى الكلام ، وغض من فصاحته ، وإنما الفصاحة فى أن تكون فى ذكر الأرحام فائدة مستقلة .

والوجه الثانى : أن فى ذكرها على ذلك تقدير التساؤل بها والقسم بحرمتها والحديث الصحيح يرد ذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)[٢] .

ولقد شفى نفسى ، وأبرأ سقمها رد أبى حيان على مزاعم ابن عطية حيث قال معقباً على ذلك : « وأما قول ابن عطية : ويرد عندى هذه القراءة من المعنى وجهان فجسارة قبيحة منه لاتليق بحاله ، ولا بطهارة لسانه ، إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فردها بشىء خطر له فى ذهنه ، وجسارته هذه لاتليق إلا بالمعتزلة كالزمخشرى فإنه كثيراً مايطعن فى نقل القراء وقراءتهم »[٣] .

ولسنا بحاجة إلى إعادة مقالة الفخر الرازى فى الرد على الاستدلال

---

(١) راجع إبراز المعانى لأبى شامة (شرح الشاطبية) ص ٢٧٥ .
(٢) البحر المحيط ٣/١٥٨ .
(٣) المصدر السابق ٣/١٥٩ .

بالحديث الشريف[١] ... فقد مرت بنا آنفا فى الرد على الزجاج ولا حاجة إلى التكرار .

أما العلامة الزمخشرى فقد وقف من هذه القراءة موقفين : رأيته يضعفها كما أنى رأيته يحتج لها ويساندها ... جاء هذا التضعيف فى كتاب المفصل ، وآزره فيه ابن يعيش[٢] ، كما أنى رأيته فى البحر المحيط حيث قال الزمخشرى : وليس بسديد ، يعنى الجر عطفاً على الضمير[٣] فى قراءة حمزة (تساءلون به والأرحام) بخفض الأرحام .

أما الاحتجاج لها فقد جاء فى تفسيره الكشاف[٤] حين انتصر لقراءة حمزة بقراءة ابن مسعود (تساءلون به وبالأرحام) حيث أعاد حرف الجر مع الظاهر بعد عطفه على المضمر المجرور ، فهذا يؤيد قراءة حمزة حين استغنى عن الإعادة فى الثانى لدلالة الأول عليه ... وكلاهما عربى فصيح كما سيأتى بالتفصيل .

ذلك مذهب البصريين على وجه العموم ... أما الكوفيون فكانوا إزاء هذه القراءة على منهج لغوى سليم غاية السلامة ... حيث تقبلوها بصدر رحب وأجازوها دون تردد ، ودعموها بالوارد من الشواهد نثراً[٥] وشعراً[٦]

---

(١) راجع درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى ص ٩٥ — الطبعة الأولى .

(٢) راجع شرح المفصل لابن يعيش ٣/٧٨

(٣) البحر المحيط لأبى حيان ٣/١٥٧

(٤) انظر الكشاف جـ ١ ص ٢٤١

(٥) البحر المحيط ٢/١٤٧ حيث قال (ما فيها غيره وفرسه) بجر فرس عطفاً على الضمير المخفوض ، وانظر الحجة لابن خالويه ص ٩٤

(٦) انظر مثلا البحر المحيط ٢/١٤٧ فما بعدها ، والإنصاف ص ٢٧٣ ط صبيح ، والكتاب ١/٣٩٢ ط بولاق .